مكتبة الاستاذ ابراهيم الابياري

دبي
ص.ب ١٥٦

يحيى حقي

البوسطجي

مطبعة المجلة الجديدة

99042

مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث
دبي
رقم التسجيل ٤٤٢٤٦
المصدر ....شراء

البوسطجي

١ – بلاغ ورا بلاغ .

١

دخل حسنى أفندى مكتبه : خطوته سريعة ، جبينه معقد . وأخذ — أى خطف — البلاغ من يد الغفير وانفجرت من بين شفتيه لعنة ضاع لفظها طى حدتها .. يستدعيه المأمور على عجل فيقوم من وسط عشائه مضطرا ، بعد نهار قضاه على ظهر الحمار .

وأخذ الغفير يراقب عينى (حضرة المعاون) تجرى إثر السطر وتنثنى تلاحق تاليه ، فأذا به يرى التقطيبة تخف ، وزالت عن الخدين خطوط قليلة ردت التكشيرة ابتسامة تطل .. وقال الغفير فى نفسه وهو يبلع ريقه : —

— الحكام كده . . ياما أسرع غضبهم .. ياما أسرع رضاهم !

واستراح حسنى فى جلسته واستقام ظهره وباعد بالبلاغ يمسكه باليدين ليتفرج برؤيته . ثم بدأ يتلوه على نفسه فى تمتمة غير مسموعة . كلما نطق بكلمتين رد عليهما بهزة من رأسه ، تصحبهما تلعيبة من حاجبيه ،

وشاركتهما رجله اليمنى ، فهى — من تحت المكتب — تقرظ كل تلعيبة بنقرة .. وختم تعليقاته والبلاغ بضحكة امالت رأسه ، تخرج من وسط الحلق ، ثم إلى الانف ، وقد تعود إلى الحلق ، ضحكة فاحشة ، خليعة غجرّية

وكان الغفير قد فهم منذ زمن أن (حضرة المعاون) عما يتمسخر على البلاغ . ما هو العمدة مش ولد مدارس . ومال بقلبه ضد العمدة بلدياته مع المعاون الغريب . رغم شخطه ونطره . وابتسم هو أيضا . ابتسامة ذليلة كلها تملق . .

— دا البلاغ اللى ح تقوم القيامة عشانه ؟ داهية تسم القفا يا سيدي.

ضحكة أخرى أخف . وأخذ يعيد القراءة بصوت مرتفع : منها أنه يتذوق السخرية من جديد ، ومنها أنه يتفكه بصبها كلها على رأس الغفير الواقف أمامه كاللوح ، ويشمله بتهكمه لتكون لذته مزدوجة

« ساعة تاريخه بمروري من بحرى حسب أوامر سعادة البيك المأمور ما أشعر إلا ورأيت سالمان عبد العال فما كان منه إلا أنه أخبرنى أنه سمع بالاشاعة ان ناظر بوسطة مكتب الناحية بلدنا عباس أفندى حسين اتهجم على محروسة بنت الشيخ مبارك حال كونها رايحة تشترى متر جاز من دكان الشيخ رمضان وأن المذكور أعلاه اتهجم على فرحانة بنت المعلم رضوان بعد صلاة المغرب فانسرعت وجرت منه لا سيما أنه فى الطريق العمومى وبسؤالهم لم واحد منهم اشتكا خوفا من القولة وكلام الناس وللأهمية الجميع مرسلين للمركز أفندم ؟

عمدة كوم النحل

عبد السميع وهدان

حاشية — عباس حسين أفندى عاصى على أوامر الحكومة وشيخ الخفر ولم رضى ينزل معاه

عمدة كوم النحل

عبد السميع وهدان

لم تكن فصاحة البلاغ — ففيه لا سيما — هى وحدها سبب ضحك حسنى . بل — وهو المعاون القديم فى الكار — لم يستطع أن يتمالك نفسه ازاء مكر العمد يبدو فى مثل جديد . ولكنه هذه المرة مكرصبيانى يحاول أن يخبئه عبد السميع وهدان بين السطور . ففى أول البلاغ (أوامر سعادة البيك المأمور) وفى آخره (للأهمية) . . رجل خدام حكومة يخلّص نفسه من المسئولية ، ليس له يد ولا أصبع . ولكن أين من يقرأ هذا البلاغ ولا يفهم أن بين العمدة و (ناظر بوسطة الناحية بلدنا) حزازات ، أو بتعبير العمدة نفسه : حظاظات ، وخصومات . . . ليس فى البلاغ شكوي من أحد المجنى عليهم . . والمرسلون للمركز — د الوقت ليل — شهود قد يكونوا غير متطوعين .. وحسنى ليس فى حاجة لهذا البلاغ ليفهم ما بين الرجلين من خصومة . فهو يعلم أن ناظر البريد يسكن أحد منازل العمدة ، وبسبب ما شب بينهما حول هذا المنزل جدل كله عناد .. العمدة يصر على أن يخرج من داره هذا الاجرى الرحّال. ليس له عشيرة تلمه ولا بلد يقرّه . ماهيته ؟ يدفع مثلها حلوانا للصراف ولا يبالى . والموظف المتعاظم ببدلته وطربوشه ، وسلطة الوظيفة وراءه يتكبر على هذا الفلاح الجاهل ، الجلف ، مكانه وراء الجاموسة لا بين الناس .. يجب أن ينهزم أمام الحكومة ..

ولم يكن حسنى نسى بعد كيف جاءه العمدة من قبل شهر يشكو عباس ويطلب اخراجه من المنزل على عجل . ولمح له أنه يستطيع ، ليس فقط أن يخرج خصمه من الدار ، بل — بفضل الوسائط — أن ينقله من البلد كلها . . فوعده حسنى بكلمتين حلوتين ، أن ينفذ له غرضه ، وهو ينوى أن يصلح ما بينهما . وانتهز فرصة وجوده فى كوم النحل بعد يومين وعرج فى طريقه من المحطة الي البلد على مكتب البريد . ولم يكن رأى هذا الشاب العنيد من قبل ، ولم يشأ أن يستدعيه الى دوار العمدة حتى لا تكون « الكرامة » سببا للرفض ..وقف حسنى أمام الشباك . وأمسك بأحد أعمدته ، وأطل من بين عارضتين : —

— يا عباس أفندي !

فواجهته رأس على كتفين تقبع فوقهما كاليافطة كلمة (بوستة) خيطت من قماش أصفر بخط قبيح .. ورأى وجها مطاولا تخرج منه بوضوح أنف دقيق ، طاقتاه ضيقتان تحتهما شفتان رقيقتان . فوق الجبين شعر أسود فاحم ، زاد اهمال صاحبه له من جمال حلقاته المشتبكة

— يا عباس أفندي . كنت عاوز أكلمك فى كلمة صغيّرة

— أفندم

— مش من صالحك تخانق العمدة ، انت راجل منا وعلينا . . انت أخونا وأنا أقدم منك هنا وأفهم الراجل دا . . . دا راجل طيب لسّه عيّل . الواحد يضحك عليه بكلمتين يبقى زى العسل . يهب وبعدين ينطفى

— دا لسانه زفر . . .

— لا . . لا . . انت غلطان

واستمر الكلام بين الوجهين ينقلان كل حين وآخر مكانهما من النافذة . ثم لان الحديث واختلطت أعمدة الحديد بالابتسامات والضحكات ومد عباس يده فصافحه المعاون . . ولما عاد إلى المركز ظن أنه قضى على النزاع وأراح نفسه — بالاخص — من تحقيق شكاوى العمدة فى المستقبل . . .

فاذا هذا الأمل يهدمه الغفير الواقف أمامه . .

لايستطيع هذه المرة أن يصرف المسألة حبيا أو يضحك على عقل الاثنين بكلمتين من كلامه الحلو . فهذا بلاغ له نمرة وفيه مسئولية . . ولكنه لايدرى لماذا لاتطاوعه نفسه على السير فى تحقيقه . . فليس من شك أن وراءه ضرر لهذا الشاب . . ولكن ما الذى يربطه به ؟ وماذا يهمه منه ؟ فى قرار قلبه ميل خفى . . هل مبعثه حلقات الشعر المشتبكة؟ أم احساسه بالشفقة نحو هذا الوجه المدفون فى غرفة مظلمة رطبة فى بلد حقير . . عندما صافحه من بين ثنايا العوارض الحديدية خيل اليه أنه يمسك بيد سجين . .

وكلفت حسنى التحقيق بمهارته وصرف الناس ، ثم قام الى التلفون وطلب الصراف وكلفه أن يرجو عباس أن يكلمه . وبعد قليل كان فى صوته صداقة غير مفضوحة وثبات وتاكيد ، ورن فى السماعة على أذنه صوت سريع اللهجة ، محتد الكلام ، مهتاج اللفظ ، على أنه فهم . ووعد بما كان حسنى يرجوه فيه .

فى اليوم التالى قبيل الظهر دخل عليه عباس وهجم على مكتبه يتكلم

وهو واقف . . عضلات وجهه ترتعش ، محتقن اللون ، وانفجر لايتمالك أعصابه . . هو يعلم الشكوى المقدمة ضده . . ماذا فيها ؟ إنه يفعل مايريد . ولو أراد لفعل أكثر من ذلك . على أن هذا لم يحصل . وماذا فيه لو حصل ؟ أنه يهزأ بأقصى مايمكن أن يطلب منه كرد شرف . . هل من أجل المنزل كل هذا ؟ ماذا قال لهؤلاء البنات ؟ هل هو سب ؟ ليس لسب . هل سمعه واحد ، واحد فقط ، لايكون من اتباع هذا العمدة السيء النيـة ، الخبيث . أو يشهد بأنه كلم البنات — كما يدعى — فى الطريق . . المنزل رطب ودون ولا يستحق الايجار الذى يدفعه . إن أراد اثباتا يحضر له الايصالات . أنه يقسم بالله الف مرة أنه لايعرف هؤلاء البنات ولا ـ حتى ـ أسماءهن . الشمس لاتدخل غرفة النوم والفيران كالقطط . وهكذا وهكذا . وهو يلوح بيديه يكاد ينكفىء على المكتب وأصابت حركته الدواة فاندلقت على الدفاتر ولكنها لم توقف من حدته ولا قطعت تحديقة حسنى فى هذا الشاب المحموم . تأسره من وجهه عيناه . لم يكن دقق النظر فيهما من بين العوارض فاذا به الآن أمام عينين تضيقان وتتسعان ، لايستقر انسانهما لحظـة . لهما بريق غريب . ماؤهما يغلى . .

أجلسه حسنى ولم يفاتحه بسؤال وعند انصرافه أخذه من ذراعه وسار به إلى داره . وأغدق عليه من كولونيته وتركه فى غرفة استقبال متواضعة ولكن كنباتها بغطيانها البيضاء وجوها الهادىء تريح الأعصاب المتعبة . ولما دخل عليه من جديد وجده يخفى وجهه بين راحتيه ويبكى بحرقة ونهنهة متتالية . فانسحب دون أن يشعره بنفسه . لعلمه أن الأزمة

لاتنتهى إلا بهذا الانفجار .

نما العطف بين قلبيهما وأكلا سويا وقص عليـه حسنى من ذكرياته وتجاربه حكايات تنسى الهموم . فابتدأ عباس يعود للحياة . وشكا له أنه تعب من صحته فى الأيام الأخيرة . فهو يأرق بالليل ، يشعر فى الصباح أنه يقوم من عمل شاق ، فجسمه مجهد مكدّر ، لم يرتو من النوم والراحة أقل الأسباب ـ ولو اتفهها ـ يستفزه الآن على خلاف طبيعته ، فينفجر فجأة ويهب . له حـدة تعلو درجة درجة حتى يفقد سلطانه على نفسه ويصبح كلامه خليطا من صراخ غير مفهوم . ثم يهدأ على دوخة تملأ رأسه وتكاد تعم أذنيه .

أمس جاءته هذه الدوخة فى الطريق . لايدرى ماذا فعل ، وهنا تلعثم وخفض ببصره وصمت . ثم عاد يؤكد أنه لايعرف الفتيات . كل البلد تعلم عنه الشرف وبعده التام عن المسائل النسائية ، وأكبر دليل أن النسائيات معدومة من نفسها بالمرة من كوم النحل وهى بلد كالحق .

وانتهى النهار على صفاء . وأكد له حسنى أنه واجد حلا يقضى على خطر البلاغ . ولما هم يقوم شد الضيف على يديه فابتسمت له عيناه ولكن ليس فى نظرة حسنى الفاحصة ولاشعوره الحساس مايطمئنه على أعصاب هذا الشاب . ولا على ماتخبئه له الأيام .

٢

لم يطل صمت عبد السميع وهدان . فبعد اسبوع واحد كان عباس من جديد موضوع بلاغ أخر . فى هذه المرة ترك العمدة مكره وأناقته فى الاسلوب وعدل عن اللف والدوران وكتب بلاغا قصيرا صريحا ، ليس فى أخره تحريض . فى بعض الأحيان يكون أسلوب العمد هو أصدق

وسيلة للتعبير عن بعض جرائم الريف ، وتكون سذاجة الكلام البرواز الوحيد الذي يتناسب وما لجرائم الفلاحين من صورة بدائية . والحادثه الجديدة وأن لم تكن من ضمنها الا أن بساطة الأسلوب ظلت قالبا ملائما ، ليس هذه المرة لتوافقه بل لتناقضه ، فقد تضمن البلاغ الساذج حادثة مشتبكة لا يمكن فصل عناصرها . هى مزيج من التعقيد والبساطة ، المحتمل والمستحيل ، التعقل والجنون . ولم يكن غيرهذا الاسلوب الذى يظن أنه آخر ما يصلح لوصف هذه الحادثة الشاذة يستطيع أن (يلم) على الورق بالبساطة ودوغري من غير تطويل أو فلسفة فارغة ما للحادثة من شتات مائل الوضع ، متنافر الاجزاء مثير ، للدهشة والعجب ، وصميم كله حزن وفجيعة . . .

عباس عائد فى الصباح المبكر من المحطة وراكب ركوبته فوق الجسر أمامه حقيبته الصفراء مملوءة بالخطابات . يثير دهشة افواج الفلاحين الذين يمر عليهم لأنه لايرد سلام من يحييه منهم . . له ظل واضح الأطراف متعلق بأرجل الحمار ، وسطه ملتو على الجسر المائل وآخره يتسحب تحته على بعد – كالمراقب الحذر – فوق الغيط المجاور . فى الجو نسيم مشبع ببرودة يستلذ لها الوجه ، وفى السماء قطع بكارى ، رقيقة الحاشية من سحاب ، زاهية اللون ، ممشطة مترفة ، تسير الهوينا – متداخلة متفارقة – للتنزه والتمطى فى الشمس ، فهى شفافة مبتسمة ليست دكناء أو سوداء كأخوتها الحبليات بالمطر . وفجأة رأوه يفتح الحقيبة ويتناول منها بعض الخطابات ويمزقها أرباعا ثم يُرميها بذراع مفرود فتطير فى الهواء كالريش ، ثم يعود من جديد ، والفلاحون يحملقون فيه لا يدركون علته . بدأ

بعضهم يضحك . . وجرى آخرون . وراء قصاصات الورق ، ثم انتبهوا وتكأكأوا عليه . لايكاد يقوى على البقاء فوق ظهر الحمار ، فهو محنى يهتز – ورقبته ليست منه – إلى الأمام والخلف . عيناه مريضتان قد انطفأ بريقهما . . وجهه اصفر ، وحالته كرب

— الناظر عيّان . . .

— دا مسوراً . . .

— رشّوا عليه ميّه . . .

واحاطوه بالأذرع وسندوه بالأكف حتى منزله وحملوه إلى فراشه .

٣

لم يكن فى تقدير حسنى أن يتحقق ظنه بهذه السرعة ولا على هذا الشكل ، فهو لم يتم قراءة البلاغ الجديد حتى ترحم على مستقبل هذا الشاب . وارتسمت أمامه صورة عباس أمام وكيل النيابة يلاحقه بالاسئلة ويفتش ثيابه عله يعثر على نقود سيدعيها – وأغلب الأمر كذبا – بعض أصحاب الخطابات . فالفلاح يعرف كيف ينتهز الفرصة . ثم يتلوه مندوب مصلحة البريد بأنواع من الأسئلة الاخرى . كل هذا وهو مريض ، وحيد فى منزل مقبض ، فى بلد يرأسها عدو يشعر – وهو على بعد – بشماتته

قصد حسنى أن يصل لكوم النحل قبل الجميع . يود لو يستطيع أن يقتطع من الزمن بضعة دقائق يخصصها لمقابلة وحديث بينه وبين عباس حتى لايتداخل أو يقاطعه فيها أحد . ولكنه فى القطار هبطت حماسته

وسرح ذهنه فى أفكار عديدة تبدو ولا رابطة بينها وبين البلاغ . ومع ذلك كانت حادثة عباس المحزنة هى اليد الخفية التى تحرك أفكاره . لا تجثم بها الا على كل فرع أجرد ، أو ماء أسن .

ووصل إلى المنزل وهو متعب ليس على لسانه كلمة من كلمات التشجيع التى جالت فى ذهنه من قبل . فهم من الغفير الواقف على الباب أن عباس لايزال بفراشه . وأن العمدة أجهد نفسه فى جمع قصاصات الورق فبلغ عدد الخطابات الممزقة حوالى الأربعين .

وجد حسنى صديقه راقداً فى سرير صغير فى غرفة مملوءة بالتراب وأسراب الذباب . أمامه منضدة صاج مخربشة كالحة ذات ثلاثة أرجل . وكرسى واحد أخذه حسنى وجلس بجانب النافذة .

ولما رآه عباس حاول القيام ودلى برجلين نحيفتين يبحث عن قبقابه . العيون التى كانت تلتهب رماد قديم .. حركاته بطيئة مجهدة . . أين عباس الثائر وحدته من هذا الجسد النحيل المحطم ؟ وجهه فى صفرة الليمون ، ولكنه هادىء ، بل حاول الابتسام فبدت على شفتيه ابتسامة ذابلة مافعلت إلا أنها أكدت مرضه .

— أحسن ؟

— أحسن كتير . . والحمدلله . . نمت شوية . . كنت سخن .

— ورّينى .

مد له عباس يده فأمال كرسيه وتناولها بكفه . لحظة واحدة ثم تركها .

— لا . . حرارتك عادية . مافيش حاجة .

لمسة اليد هى التى فتحت الطريق . عاد عباس إلى السرير وأسند

ظهره على الجدار ورفع ركبتيه حذاء صدره وغطاها ببطانيته . ثم بدأ يتكلم على مهل . كأنه يتلذذ من الحديث . . مرة من أول الموضوع ، ومرة من وسطه ، وربما جاء بالنتيجة قبل السبب . يطيل — على هواه — ويقتضب . أغلب الأمر أنه كان غير واضح ولامنطقى فى سرد مايقوله . . ولو كان أمام غريب لقاطعه بألف سؤال واستيضاح . ولكن حسنى لم يفتح فمه . ذراعه على حافة النافذة تسند رأسه أحيانا . عيناه صادقتان مواسيتان تشربان من الحديث . لالبس فى نظرتهما . . هو فاهم .. وشاعر بكل مافى قلب محدثه . . رغم الغموض والاضطراب وضياع النطق والتسلسل ، لم تفته نغمة واحدة . مهما كانت واطئة . من لحن صديقه .

٢ ـ عباس اصله و فصله

١

نشأ عباس من عائلة كل أفرادها موظفون صغار لم يبارحوا القاهرة. كلهم يؤكدون أنهم من سلالة عربية (ومن هنا عيونه السوداء ووجهه الضيق الطويل) وبعضهم يضيف أنهم من السادات رغم أن سلسلة النسب الشريف التى يحفظونها تنتهى عند جدهم الثالث. كل ما يعرفونه عنه أنه هبط مصر من طرابلس واستقر بالفحامين فى تجارة صغيرة قوامها الشاي والبلغ. وعند وفاته قفل الدكان وتفرق أولاده من المدارس على وظائف الحكومة. معظمهم مات بعده بقليل وهم فى مطلع الرجولة فقطعوا بذلك ماضى الاسرة عن جيلها الحاضر.

ظل عباس لا يري فى هذه التفاصيل سوى حكاية يسمعها ويرويها ولا تؤثر على حياته، إلى أن انتصفت دراسته الثانوية فاستيقظت فيه عاطفة من الغيرة كلما رأى ـ اذا اقتربت الاجازة السنوية ـ طلبة المديرية الواحدة يجتمعون ويتناقشون فى موعد السفر وتذاكر الجماعات المخفضة. وجرح قلبه. هل عائلته نبات شيطانى عائم على وجه الماء؟ فى نفسه ضعف لشعورها أنه ينقصها ـ على خلاف من حولها ـ جذور قوية تربطها بمكان معين. أجازته كدراسته تمضى فى منزل لا يستقر فى حى واحد، يصغر ويكبر، ويطول ويقصر. وأخذ يصبر نفسه. يتذوق دونهم لذة لا

يعرفونها. فهو قد فهم من محادثته معظم هؤلاء الزملاء أنهم ما يصلون لبلادهم حتى يخلعوا بدلهم ولا يرونها إلا اذا حان موعد الرجوع. أما هو فبعيد عن هذا الانقلاب وهذه الحياة ذات الوجهين. فبدلته موجودة كل يوم تنتظره ما بعد العصر ليخرج يتجول بها شوارع القاهرة. له شلة من الاصدقاء سريعة تنقل الاهواء. مرة فى قهاوى المالية تلعب الطاولة ومرة فى قهاوي أبى الريش تلعب الشطرنج وأحيانا فى قهاوي سيدنا الحسين يتعشون بالكباب (اسم الطعمية فى هذا الحى) ثم إذا جاءهم فرج أول الشهر يتمخطرون بضعة أيام فى شارع عماد الدين. هم فقراء لا يحتكم أحدهم على ريال صحيح ومع ذلك يشعرون كأن قهاوى القاهرة وشوارعها وفسحها ملك لهم

استمر فى دراسته الى أن اقترب من البكالوريا فاذا بنوع من سوء الحظ أحاط بعائلته. لا يستطيع أن يضع أصبعه على حادثة معينة ويقول أنها السبب. فالعائلات مخلوقات تهبط أحيانا تحت تأثير مرض خفى غير معروف يمنعها عن السير. أبوه ـ بدون مناسبة ـ ارتبك فى عمله وأحالوه قبل موعده على المعاش. وأخته غضبت وعادت للمنزل. لا هذا ولا ذاك أثر فى حالتهم المالية تأثيرا جسيما ولكنها فتتت ـ بغير سبب واضح ـ من قوة تضامن العائلة فتفركشت. وخرج عباس ـ بخطره ـ من المدارس يبحث عن عمل فوجده فى مصلحة البريد. ولبث فى القاهرة زمنا يتمتع بماهيته يصرفها وهو نشوان فى تحقيق رغبات الصبا المتكتمة. كلما اذاقته شبعا خلقت بدله جوعا جديدا لأنواع مختلفة من اللذات كالسلسلة المستديرة تأخذ الحلقة بعنق الاخرى. ولكن دوام الحال من المحال

وجاء اليوم الذى صدر فيه أمر نقله الى (ناظر مكتب كوم النحل)

من ساعة ماحطّيت رجلى فى البلد ماطقتهاش ، حسبت انى محبوس .. فين مصر وشوارعها ، وناسها ، وفين الليل مليان نور ، ونسوان رايحه وجاية ، وحركة . . لكن هنا : أهو الشباك قدامك . . بص . . تلاقى ايه ؟ شوية طين مكوم وناس وسخين مقملين ، وتو مايدن المغرب كل واحد يتلم فى بيته . . والعتمة ؟ ياباى من العتمة ياباى . . طول الليل حمير تنهق وكلاب تعوي . . أول امبارح جاموسة الجيران ماتت . . قبل مايلحقوها بالسكين فضلوا يصوتوا عليها وهات يالطم . . جنازة حق بحقيق مانعتش للفجر . . »

لم يكن حسنى أقل ضيقا بالصعيـد من محدثه . كل رجواته أن ينقل لبحرى . أطل من الشباك على بيوت واطئة متراصة ، الفقيرمنها بالجالوص والغنى مبرقش بفتات التبن فى طوبه النى . كلهـا أقزام متزاحمة متلاصقة كأنها قبيلة متوحشة ، على رؤوسها شعر الهمج فى تلول هشة من حطب القطن وبوص الذرة . ووصلت إلى اذنه صرخات متعالية ، بعضها للانسان وبعضها للحيوان ، لا فرق بينها . حدة الصارخ فيها واحدة ، وعناد المنتهر سواء . .

على أن عينه لمحت من فوق أكوام الوقود خضرة ممتدة . لايرى فيها شيئا بوضوح . هو حقل فول لم تظهر قرونه بعد . أزهاره فى مقتبل عمرها ، بعضها أبيض ، وبعضها ضارب للحمرة . . كلها تهتز فى حركة خفيفة ، لايستطيع أن يحس بها من رؤية العيون مهما كثرت . بل لابد أن ترتمى نظرته وتشمل الحقل على امتداده . الحركة تجول فيه ، مختلفة النمط

هنا عن هناك . ولكنها رغم هذا الاختلاف شخصية واحدة لها سحر العيدان كلها – فى هزة المرتلين – تشترك فى انشودة خافتة معسولة .

فى بعض الأحيان يمر بركوبته وسط هذه الحقول وتشمله بعطرها ، فينسى كل همومه ، وثقالة الصعيد ويسرح ذهنه ، ويشعر أن مابينه وبين الله قد عمر من جديد . هو أسير الصعيد . ولكنه مذعن : موطد نفسه على الرضا بما فيه . أما عباس فزهرة لاتنتزع من أرضها الا بتلف جذورها فهى لاتتشبث بعد ذلك فى منبت جديد . لايقوى على البعاد عن القاهرة أمه وعشيقته . هو كالنحلة تستمد حياتها من زحام الخلية وان كتم أنفاسها فان وجدت فى وحدة ماتت ولو كانت فى أطيب مرتع وأرفه حياة . . وعميت عيناه عن ثروة الصعيد فى سمائه وحقله وسمرت على أكوام الحطب .

— ٢ —

« والأدهى من كده إن دى أول مرة البس فيها بدلة البوسطة الملعونة دى . عامل أفندي بالكدب . لاطلت عنب الشام ولا عنب اليمن . عمر الفلاحين مابصوا لى وأنا فى البدلة الصفرا دى زى مابيبصوا باحترام لمعاون دودة حقير ، ولا كاتب صحه أصله مزّين علشان لابسين بدل . كلهم يعرفونى . لكن ماشفتش واحد ، بلاش أنكت ويّاه ، اتكلم معاه . العمدة راجل جلف زى ماانت عارف . حتى الصراف هنا من طرز زمان عجوز وبعمّه . أقرب أفندي لى ناظر المحطه ودا عشان أوصله لازم أركب الحمار تانى وسط العفرة ٣ كيلو . بقيت أخرج من المكتب للبيت ومن البيت للمكتب . كنت ح أجنن . أبقى معذور ولا لأ إذا كنت اتعلمت الشرب . كل ماانزل للبندر أجيب إزازة أو ازازتين كونياك . كل مصروف إيدى رايح على الخمرة . واخرتها اتبهدلت بقا . القيافة بتاعت زمان طارت

وبقيت أسيب دقنى بالجمع واتعودت أروح بالجلابيّة والجاكتة للمكتب مالبس البنطلون والياقة إلا لما يجى مفتش . ليه خوتة الدماغ وأقلع والبس فى البدلة وانت وسط الناس دول .

وابتسم عباس بحسرة وتندم ، ثم صمت ، له كل حين وآخر ضربة خفيفة على ركبتيه كانه يروض نفسه العاصية على البوح بما فى صدره .

«كان الكلام ده قبل الوقفه بيومين . وأنا واقف فى المكتب جالى الصراف وورّانى قصقوصة قماش صغيّرة فى ايده . زفير ولا بوبلين ، حاجة زى دى . وقال لى :-

— ياعباس أفندى . حاجه لقطة والبياع قومسيونجى صاحبي تحب أجيب لك كام متر من دا ؟ يعجبك ؟

— عشان إيه ؟

— ليه ؟ مش ح تفصل لك جلابيّة على العيد ؟

مش فاكر قلت له إيه ، فاكر إنى رحت أودة ثانية . حاجة محيرانى . أضحك ؟ دى أول مرة أسمع فيها إنى أبقى زى ولاد البلد وأفصل بدل البدلة جلابيّة . تصور ؟ كل فرحة العيد وقال تفصيل جلابيّة . حاجة تضحك ولا تبكى . الدمعة طفرت من عينى مرة واحدة . وهات ياعياط . . عمرها ماحصلت لى . ماكنتش أتصور أن كلمة سخيفة زي دى تخلينى أعيط زى العيال العياط دا كله .

٣

كم تحسر عباس فى هذا الوقت على أن الحظ الذي رماه فى كوم النحل لم يجزه عن اساءته عملا مسليا يعينه على تحمل الوحدة التى تكاد تقصف عمره وتطيّر برج عقله . كان يحسد ناظر المحطة وعامل البلوك بل وخفير

المزلقان لأن لهم فى القطارات وحركة المسافرين وتطلع الوجوه ماينقذهم من وهدة الضجر والسأم . أما هو فعمله ميكانيكى ، فى غرفة ضيقة لامفر له منها . فى أول الأمر كان له فى الخطابات جدة تأخذ عليه جزءا من تفكيره ، وربما تفكه بما على الظروف من أغلاط الاملاء ومبتكرات الفلاحين . (من مصر المحروسة لكوم النحل قبلى) (الى كوم النحل المحطة ومنها إلى كوم النحل البلد) كلها (خير وسلام) وبدوح بأرقامها ومن يد ليد الخ الخ . ولكن بعد قليل حتى هذه المتعة الضئيلة حرمه التكرار منها وأصبح يحفظ عن ظهر قلب أسماء من ترد لهم جوابات وجهة ورودها . بل أصبح يستدل على صاحب الخطاب لامن قراءة عنوانه بل فى شكل الظرف أو خطه أو لازمته . وكره عباس أيامه وبدا له عمله فى صورة سلسلة من الخطابات موكلة به كالصبية حول معتوه تشاغله ، لايصفع الواحد منها بختمه حتى يجىء له من جديد ، هو هو بذاته لايتغير ، يخنقه فى كيس أصفر ويقذف بجثته فى القطار فيجده - بعد أيام - على المنضدة يصيح عليه .

وهبطت على عباس رحمة من الكونياك فاعتمت له ذهنه وأرخت أعصابه وعلمته كيف ينسى عمله وأطواره نسيا يكاد يكون تاما ، يؤدى وظيفته كالمنوّم المساق . وزاد اهماله وعلا التراب كل المتاع .

على أنه وإن تخلص من ملل العمل لم يستطع أن يهرب من وحدة المعيشة . هى التى وسوست له من جديد واعادت له التفاته إلى وظيفته ولكنه هذه المرة التفات خطر . فقد بدأ يأخذ الخطاب بيده - كأنه يزنه - ويطيل اليه النظر . ثم ضحك . ماهذا العالم المتشابك ؟ ! حتى

لأصغر القري تصل هذه السلوك من الورق تربط من الناس بعضهم ببعض مالا يربطه الحديد، ليس يفهم مابين الناس من تماسك إلا من يدخل مكاتب البريد. هـذه الجماهير التى ترى حرة فى الشوارع، فى أثرها رسائل تلاحقها وتأخذ بتلابيبها، تصدمها وربما كعبلتها وكفأتها، أو غيرت مجرى حياتها إلى مالا تظنه ولايخطر لهـا على بال. قد تكون استجداء أو تهديداً. شكوى أو تحكما، بعضها قسوة وبعضها استرحام قد تكون محبة أو عداء. مكتوبة بالعطر أو بالدم. قد تكون كلها أرقاما تمثل خراب بيوت، وقد تظفر وحدها دون غيرها بدليل على خيانة زوجة طاهرة، أو اعتراف بجريمة، وقد تكون بعد ذلك تافهة، غثة، تمثل مافى الحياة من رغاء كهدير الأبل، ولـكنها - رغم ذلك - لها قيمتها لأنها مغلقة، مجهولة، مطوية، فلا يختلف جواب عن جواب كلاهما سر محجب، لو لان الصمغ لانكشف عن أمر عجيب. وحتى لولم يظفر المقتحم بشىء فانه سيقع على أمثلة من طبائع الناس واهوائهم: سيشجيه أن يرى كيف يضع الله فى كل قلب مايشغله، لايتشابه قلب وقلب: كلها مسّارة روحها مصونة، لايفسدها الجهر، فالطبيعة فيها على حالها: لا مواربة ولا خداع. وربمـا لاتحوي الحياة متعة تقارب لذة تتبع رسائل عقل حساس - أياكان عصره أو طبقته.

وأخذت يد عباس تأكله: رغم اجتهاده لم يستطع أن يفهم البلد وعقليته، وشهوات أهلها ومناحى أفكارهم. فهل يكون عمله هو المنحة التى وهبها له الحظ ليوقفه من كوم النحل على أدق دخائلها؟ وأخيرا

- لسوء حظه - طرأ عليـه وهم هو وحده الذى رجح الحجة المريضة وقذف به إلى الجريمة. هذه البلد الكريهة سلبته شبابه، تكاد تكون مقبرته، وهؤلاء الناس المنتنون، المصفرو الوجوه، المرضى العيون يضمرون له - لأنه غريب - أزورارا وانقباضا، كلهم يضحكون فى وجهه بخبث واستعباط، وهو يفضاهم بتربيته وعقليته. ففى العمل الذي سيقدم عليه خير انتقام منهم. سيطويهم عامه جميعا وتضمهم قبضة يده، وسيقف أمامهم صامتا ولـكنه يهزأ منهم فى قرارة نفسه. وسيكون هو الفائز لامحالة. سيحتاط للأمر ويربط لسانه ويكتم السر فلا يدرى به أحد. فليس من خطر.

وكان مقدّرا عليه فى يوم، بعد انتهاء عمله، انه يختار جوابا غير محبوك الظرف، ويفتحه على مهل..

«.. إيدى كانت بترتعش. خايف وبرضه مقاوح. لـكن رغم دا ماشبعتش من جواب واحد. بعد ماقفلته فتحت جواب تانى. جوابات فلاحين أغلبها حسابات وسلام وسؤال عن الأقارب. ومع ذلك كنت مبسوط. حاجة انزاحت من على قلبي. لغاية دلوقتى مانيش عارف ازّاى قدرت أعمل كده.. مش دي طبيعتى. لـكن حاجة وزتنى.. والشيطان لعب بعقلى»

اعتراف ساذج لمس قلب حسنى فابتسم.. وقلبه حزين. ليس عباس أول شاب يعرفه يأتى من القاهرة ليرتكب أول جرمه فى الصعيد. كثيرون غيره جاؤا اصحاء النفوس، على وجوههم جمال الرضا والاتزان، فى حركاتهم وملابسهم تأنق. فأصبحوا بعد زمن غلاظ الوجوه، سمان البطون

ثقيلة حركاتهم ، نظراتهم حيوانية وكلامهم بذاءة متكرّرة وفكاهتهم منحطة أفكارهم سخيفة محصورة ، ضيقة . حين يعودون لمدنهم ينكرهم اصدقاؤهم وتختلف أذواقهم حتى كأنهم شعبان . .

الصعيد هو المسئول عن تلفهم . . فهم طيبو القلوب ولكن من ضيق التربية بحيث لايستطيعون السمو عن المحيط المتنافر معهم ، أو اخضاع ظروفه لمنفعتهم واستخلاص مافيه من خير والأعراض عن شره . فهم لاينتقمون من جو الصعيد المقبض ووحدته القاتلة إلا فى أنفسهم . يسلمون لها المنزلق ويترددون فى عناد وتكبر الى الهاوية .. يبدأ أحدهم بكأس مع أصدقائه وينتهى بسكير مدمن ، الخمر أهم خزين بيته . . ويلعب اخر للتسلى فيصبح مقامرا يسهر للصبح ويوقف حياته على تشمم أخبار البرتيتات ثم من وراء ذلك من ينساق الى اختلاس هين ، أو سرقة تعد بالقروش منهم من ينجو ومنهم من ينتهى إلى السجن . . ليست سقطة عباس الا مثلا اخر على ضحايا الصعيد . لاينفرد وحده بهذا الجرم . فكم فى الارياف من مكاتب بريد يفتح موظفوها الجوابات ، لايكتشف منهم الا اللصوص الذين يتصيدون أوراق البنكنوت ، وتبقى جرائم الباقى مستورة . بعضها تجسس على عدو معروف . وبعضها نتيجة عقلية موظف يعيش فى وهم دائم من الدسائس والوشايات والاتهامات فيحتاط لنفسه ويقرأ خطابات من يتوقع منهم الشر . . .

هذه الاصناف كلها يحتقرها حسنى وينفيها عن دائرة الانسانية التى يتعلق بها . . فهل عباس من هؤلاء ؟ جريمته واحدة . وقد يقول متشكك أنها أثر مما فى طيات نفسه من قبح مكتوم ولكن حسنى يثق بألهام وجدان

فى طهارة صديقه . إن جريمته ليست الاختاما فجيعا لاصطدام عباس ربيب قهاوى القاهرة وشوارعها بالصعيد وطينه وفلاحيه . طبيعته قبل أن تفسد تكسرت فهو أحسن حظا من بقية الضحايا الذين يموتون على مهل عفنا .

٥

« كنت فى الأول أفتح الجواب إللى يجى تحت إيدي ، بالصدفة ، كله عندى زى بعضه ، تسلية والسلام ، لقيتها كلها سخيفة ، بقيت بعد كده أنقى جوابات ناس أعرفهم . من دول مرة عجوزة تيجى كل يوم الصبح تسأل بنفسها على جواباتها . . . »

كل الناس يواجهون الشباك اما هى فجاءت ووقفت بجنب ، منكمشة ، الحياء يقطر منها . سألها عن حاجتها فلم تغير موقفها وكلمته . صوت مدلع ناعم ، ولهجة ممرقعة من غير داعى كأنها تعرفه ، بل بينهما علاقة وليست هذه أول مرة يراها فيها . . .

ـ ماليش جوابات النهارده ؟ مالك مصهين على . . ياخوى . . دا العشم ماكنش كده .

ام أحمد تتعصب بمنديل بقوية مفلفلة وتغطى وجهها بطرف طرحتها قلما تزيحه ، حتى يظل لها بفضل رقة صوتها جمال الظن والحدس ، على أنها اذا تكلمت تضعف من جديد أمام اعتقادها فى نفسها وفى سحرها الذي لايزول فهى تزيح لمحدثها طرف طرحتها لحظة واحدة . ثم تعود لصوابها وتغطى وجهها ثانية فى حركة سريعة ، كلها جبن وتردد ، يتمثل بها نزاع حاد لاينتهى بين قوى متكافئة . غرورها وحصافتها

ناولها خطابها فمدت له يداً من حافة أظافرها إلى الرسغ فروع من الوشم معضنة ناشفة ، لم تفلح الحناء فى تغطية زرقتها

ـ من إيد ما أعدمهاش أبداً .. يمتعك بشبابك تتهنّى ..

أخذت تجيئه كل صباح فلا يخيب أملها ، جوابها مثلها فى المواظبة لم يتأخر فى يوم . الظرف واحد وختم البوسطة لايتغير (مصر) . والخط على الظرف ذو تربية والكلام مختصر يكاد ينفرد عن بقية الخطابات بهذه الميزة .

« كل ده خلانى أهتم بالوليّة دى . غايته ح تكون إيه ؟ الجوابات دىّ من قريب لها ؟ مش معقول . . لما جت البوسطة وشفت جوابها حاجة خلتنى مش قادر أسيبه من إيدي .. بصنعة لطافة بشويش على السبرتو شوية شوية لما فتحته . . فكرك لقيت إيه ؟ جواب حب من الدرجة الاولى . . فيه بوس وأحضان وشكوي وكلام فارغ زى ده . . ضحكت لما انفلقت. أول الجواب (حبيبتى ونور عينى) .. مش مصيبة أن الوليّة دى تبقى لسه لدلوقتى نورعين ؟ لكن بقيت مش مصدق . مش داخله راسى . لازم المسالة فيها سر تانى . إزاى أوصل له ؟ سهل خالص . بصيت ألامضا لقيتها خليل . جه فى بالى طوّالى ظرف دايما ألاقيه فى الصادر . العنوان إللى عليه :

« حضرة المحترم الفاضل خليل ابراهيم افندى

يحفظ بشباك بوستة الفجالة

مصر

لازم هوّ ا . ح يكون فى مصر كام خليل لهم جوابات من كوم النحل

مافيش غيره فى الغالب .. تانى يوم فتشت الصادر ع الجواب اللى فى بالى لقيته . . الظرف مكتوب بالكوبيا . خط منتظم لكن حروفه واطية . حاجة نسوانى كده . . زى ماعملت فى الأول عملت فى التانى . فتحته . لقيت رد جواب أم أحمد . كله حب هوّ راخر . لكن الامضا لا أم أحمد ولا أم ديالو . . كلمه واحدة معقولة . : جميلة . عرفت انى أنا مش وحدى فى البلد . . أم أحمد عامله بوسطجى معاى .

تانى يوم لما جت لى ضحكت عليها وقلت لها :

— لك جواب مسوكر . . من فضلك اكتبي اسمك هنا

— يابنى ماتضحكش علىّ . . دانت غالى عندي قوى وحياة شرفك ختمى نسيته فى البيت .

فتأكدت . . ولما قلت لها دى كانت غلطة منى ابتسمت قوى . . افتكرت إنى هزرت وياها مخصوص .

تتبعت مراسلات جميلة وخليل . . هىّ إللى نستنى الجوابات التانية . مابقتش أفتح منها ولا جواب »

— ٦ —

فى مبدأ الامر بدأ يشك انها جوابات حب عادية كثيرة الوقوع بين فتى يختفى وراء شباك البريد وفتاة وراء عجوز ، وأن عباراتها متكررة وفى اغلب الأحيان متشابهه . ولوكان شعور عباس مقصوراً على ما تراه عيناه لأملهّ مابها من خلط بين الحب وأحاديث أخري سخيفة فليس شيء أقرب لأصحاب الطبيعة النارية من الملل ، لديهم كل ثورة متعالية قصيرة العمر يعقبها هدوء كأنه الموت . ولكنه فوق ذلك ـ ذو قلب

حساس . اهتز كالعصا التى تكتشف المناجم المخبأة ، فوق كنوزها المدفونة بين السطور ، شيء خفى فى هذه الخطابات تعلق بقلبه فأصبح لا يستطيع الخلاص منها . .

بعد مدة بدأ بينه وبين الفتى نفور . . فهو يكتب بالحبر ، خطه جميل ولكن أثر التصنع والمجهود فيه ظاهر . شعر عباس أنه أمام شخص (يحسّن خطه) أكثر مما يعبر عن شيء . يبدأ كل مرة من طرف الورقة المثنى ، ويضع التاريخ دائما فى أول الصحيفة من اليمين ودائما بالخط النسخ يحيط امضاءه بخط يخرج من حرف اللام ويرسم فوقه دائرة صغيرة تبدأ منها دائرة أخرى كبيرة تشمل الكلمة كلها فى كل جواب منه فراغ أبيض قصرت عنه أفكاره . أكثر احاديثه عن حركات مادية . من أوائل الخطابات التى فتحها عباس خطاب يحكى لها فسحة فى القناطر الخيرية مع بعض اصحابه . . بدأه باللغة العامية ثم عندما جاء للحدائق وصفها لها بلغة فصحى فيها كثير من السجع . كل هذه المظاهر جعلت عباس يعتقد أن خليل شخصية ضحضاحة قوامها الغرور . . وظن فى مبدأ الامر أنه لا بد أن يكون تلميذا

ضاعت قيمة جوابات خليل فى نظره ولم يبق له إلا جوابات جميلة . لم يكن تقديره لها من أثر المقارنة بين الاثنين . فاصحاب الطبيعة الصافية ولو أنها مشتعلة كعباس . لديهم استعداد موهوب يفتح أعينهم للاحساس الصادق .. وكانت كل مظاهر جواباتها تدل على أن حب جميلة مخلص غير كاذب يشغل حياتها ويأخذ عليها كل تفكيرها . . وقد ساعدتها الظروف على أن تكون كتابتها أرق . فليس فى القرى للفتاة حياة مادية تستطيع

ان تتحدث عنها . هى فى أغلب الامر حبيسة دارها . فاقتصرت جميلة على وصف شعورها وأفكارها . تقص له — من جديد — ذكريات قديمة بينهما . وليس من جواب الا تضمنه أملا لها فى المستقبل أو ثقتها بعدالة الله . لم تحاول مرة أن تكتب باللغة الفصحى مع أن الدلائل تدل على أنها تعرفها . . كتابتها تنتهى دائما — وكأنه غصب عنها — فى آخر الورقة . خطاباتها كالظروف مكتوبة بقلم كوبيا . مرة تبدأ من الطرف المثنى ومرة من الطرف المفرد . جواباتها على الورق المسطر بالمستطيلات وفى بعض الاحيان تكتب على ورقة كراسة . كثيرا ماتهمل التاريخ ، وكثيرا ما يكون فى خطها حروف أكثر ظهورا من غيرها بتبلل الورق دلالة على أنها تسهو فى بعض الاحيان وتضع القلم فى فمها . تبدأ الجواب بحروف متقاربة وتنتهى به وقد اتسعت . ولاحظ عباس أن هذه الظاهرة تتكرر فى الخطاب الواحد ، فاستنتج أنها تكتب الجواب فى بعض الاحيان على جلسات متعددة ومع ذلك لا يستطيع من يقرأه أن يلحظ أى انقطاع فى روحه . الكلمة التى قامت عليها ، فى ذهنها عندما تعود

٧

لم يكن عباس جاسوسا دنيئا يستمد كل لذته من اطلاعه — مجرد اطلاعه — على أسرار يظنها صاحبها فى مأمن سواء أكانت هذه الاسرار ذات خطر أم تافهة . بعض النسوة يقفن بالساعات وراء الستائر يراقبن جيرانهن يؤدين خدمة المنزل ، فهو لو كان كذلك لارتد شعوره ساعة فتح الجواب وانحصر فى نفسه لا يهمه — بل وربما لا يفهم — ما يقع عليه بصره ، يغمره نجاحه وتوفقه للسر بالغبطة المريضة ، على وجه ضحكة صفراء

نكراء ، خبيثة ، ممرورة ، هي أكثر ما تكون تهلل الشيطان الذي يتلبسه

أما هو فبعيد عن هـذا . قلّما يفكر ساعتئذ في نفسه اذ يشعر أنه انتصر . ليس على وجهه أثر للغبطة . بل بالعكس ، شيء في هذه الخطابات يهصر قلبه ويميت شفتيه . هـل هو من ندمه على جرمه ؟ أم لأنه استفاق لاول مرة في حياته أن ضجة الدنيا تخنق طيّها نغمات قد تكون خافتة ، ولكنها أصيلة ؟ هل كان يظن أن أسطح القش وجدران الطين في كوم النحل تخفي قلبا متوقدا ، يتفطر كل يوم على الورق ولا يهمد أو يذوى ؟ كيف أحتالت جميلة حتى ضمنت أم أحمد في صفها ؟ وسط أي الصعاب تم جوابها ؟ اعتقاد عباس أنها تكتب بالكوبيا لأن القلم أسهل في الاخفاء من الريشة والدواة

ماكان يظنه لهوا وتسلية انقلب الى شغل شاغل ورباط وثيق . اصبحت هذه الخطابات جزءا من حياة عباس لا يستطيع أن يستغنى عنها . هو من قبل مجيء أم أحمد يفتش على جوابها ولا يرسل البريد إلا بعد أن يتأكد أن ليس به جوابات من جميلة . فاذا ظفر به وضعه في جيبه وتملكته حمى العاشق لا يطيق مرور الساعات التي تفصله عن اللقاء

فعباس يختار لقراءة هذه الجوابات ساعة متأخرة من الليل ، وربما بين كأسين ، يجلس بجوار النافذة . يسند ذراعه على طرابيزته أم ثلاث أرجل ، وجهه في غمرة ضوء المصباح ولكن في تقاطيعه الساهمة حزن بعيد عن الانقباض ، مستريح غير قلق ، خلفه كائن قريب منه . إن أراد أن يراه ماعليه إلا أن يدير للنافذة وجهه فيقابله . ليل في ظلمة العمى ، تلفع به الكون مرغما ، هبط على الفضاء حملا ثقيلا ، أحاط بالارض كالقيد ،

غطى الحقول كالكفن ، ولف القرى كالضماد . وانحدر ، فلاحد لاتساعه ، الى الشقوق فاحتواها . ثم تلفت يبحث عن مداخل النفوس التي يعلم أنها تستقبله وتتشربه فاحتلها يتمطى فيها . هو في كل زورة له الآن لكوم النحل يتسلل كاللص الى قلب عباس ، على غفلة منه ، كصندوق الراديو لا يعلم السر الذى يحتويه . . إلا اذا ضغطت يد على مفتاحه .

لا ينتهي عباس من قراءته حتى يسهّم — في قلبه وسواس خفي يشعر أنه صادق لا يخطيء . يهمس له أنه يطل على الفصول الممهدة لمأساة ، ويكاد يحس بيد خفية تجذبه شيئا فشيئا من مخبأ المتفرج المجهول الى حلقة النزاع التى تضم رأسين لا يشعران بالسيف المعلق فوقهما .. حتى يصبح الخطر واحدا للجميع

في الحياة مصائد يعلق بها قدم الانسان من حيث لا يحتسب فلا يستطيع الخلاص منها وأن أجهد نفسه . فهل كان عباس عندما فتح أول جواب يخطر له على بال أن قدر هذه المراسلات سيقاطع قدره ويختلط الاثنان سويا ؟ أن تكون في أول الامر لعبته ثم في النهاية مصرعه ؟ لم تصبح مراسلات بين اثنين .. بل بين ثلاثة . ولعل أكثرهم تأثرا بها من لم يخط فيها حرفا

« تقلت في الشرب شوية . وفي الوقت ده بقيت أنام بالليل وأنا خايف وجات لي أحلام مزعجة . وقمت مرة وأنا مفزوع أصرخ . ما فيش حد في البيت غيري . أخر ما غلبت اترجيت غفير الدرك أنه يبقى دايما مواليني . فات على كده حسبة ثلاثة أشهر وأنا مايفوتنيش جواب واحد . كنت الاول أخمن حاجات كثيرة لكن بعـدين فهمت من الجوابات تاريخ

البنت دى من أوّله لآخره . لكن مين هىّ ؟ ما عرفتهاش ابدا ولا ولا شفتهاش . كنت خايف لو لمحت لام احمد تكون مرة بنت حنت تفقسنى وتودينى فى داهية . مره ملعب مش مساهل . اتشممت من هنا وهنا عرفت أنها تدخل كل بيوت البلد تقريبا . ازاى أعرف ؟ مش ممكن ، بقيت أبص للبنات الى ماشيين . كلهم الطرحة على وشهم ، ملفوفين فى ملايات سودا ، مصبوغة منيلة تخرخش زى الورق . يمشوا لازقين فى الحيطة زى اللى ح يدخلوا فيها ما تلمحش وش واحده منهم . مين فيهم تكون جميلة . حاجة تجنن . كل واحده اشوفها أحس أن قلبى يتنفض ، مش يمكن تكون هىّ

كل اللى عرفته كان على أم احمد . كل ما استفهم ألاقى ناس كتير يعرفوها ويحكولى عنها . ولما فهمت السبب فى أن جوابات خليل تيجى عليها عرفت المسألة من أولها لآخرها

٣ — جميلة .. وبنت ناس

١

كوم النحل من أعمال مركز . . . بأسيوط . ليس فيها واحد يستطيع أن يجيب هل النحل هو الذى خلق البلد ام هى التى خلقت لنفسها هذه التسمية . كل مايظفر به الباحث سطر ونصف فى خطط على باشا مبارك (مشهورة بجودة عسلها ، بينها وبين مركز . . . خمسة عشر كيلومترا) لم يقرظها باسم عائلة واحدة مشهورة ولكن الظواهر تدل على انها بلدة قديمة قد يرجع سبب اهمالها إلى أن اثارها لم تكتشف بعد . فهى لم تتأثر بالطوفان العربى وتكاد تنفرد عن بقيته بلاد المركز بأن اسمها ليس مسبوقا « ببنى » أو ينم عن اسم قبيلة . هى واقعة على الجسر الطوّالى . بعدها عن الجبل نفور ظاهر عن حياة البدو . وارتفاعها عن وسط الحوض ترفع عن الزراعة . والأغلب أنها ظلّت طول عمرها فى تجارات تعيش ردحا ثم تختفى . فلما وقعت على النحل — ولا يعلم متى — لم تستطع أن تتملص من قبضته . وشملها هذا الحيوان الخنثى العجيب ضمن مملكته فأدخلها خلّيته . لا ليغطيها بقبته المرمرية بل بشهرته واسمه .

ومال بعد ذلك بخت مصر وذوت صناعاتها وجاء يوم تفرق النحل فيه من خلاياه إلى الثقوب وتجوات الشجر ثم بلعه الكون واختفى . لم يبق من هذا التاريخ سوى الاسم وبعض خليات من الطين على اسطح قليلة ، يرزق منها ، ومعاشها متوقف عليها عائلات قبطية تربى النحل

وراثة لا اختيارا . عن تلقين لا عن سعى . تجارتهم محاطة بسرّ . هم كهنة دين هدمت محاريبه فى نظر بقيـة السكان الذين غمرتهم الزراعة فى ذلها واستعبادها . فليست تملك كوم النحل — على اتساعها وكثرة سكانها — سوى الأقل من عشر زمامها والباقى وقف لعائلة من الشركس لها سراى خربة فى البندر .

من تجار النحل فى البلدة المعلم سلامة . رجل يقول عنه المسلمون أنه عضمة زرقة ومع ذلك لايشعرون اذا جالسوه بأى كره له . ليس لانه بحكم مهنتـه بعيـد عن المساقى ومشاجراتها والحدود وخصوماتهـا والمواشى تنزل فى البرسيم والماء يمر بالقوة ، بل لانه رغم ما يقال عن شيبته الزرقاء (أيضـا !) لايكاد يفترق فى مظهره ، فى أخلاقه وعاداته عن بقية المسلمين ، اللبس واحد والعمامة فوق رأسه عليها المقدار ذاته من التراب . تتحجب امرأته فى الطريق كأهل البلد

هو ارثوذكسى ، يزهو بزيارات القسيس له ، ويأخـذ عائلته كلها للكنيسة ، فيجلس هو تحت ، وتجلس امرأته وبنته الصغـيرة جميلة فى الشرفة محجبة بالشيش . ويبدأ الجميع فى ترتيل صلاة ، بعضهم يقرأها من الكتاب ، وبعضهم لا يحفظ النغمة فهو متردد ولكنه يسير بسهولة بعد ذلك عندما ينتظم الجميع ويحملونه معهم . يقودهم المعلم سلامه ، يحفظ كل الصلوات نغما وكلاما ، عن ظهر قلب صوته أجش غليظ ، يقال عنه أنه كان فى شبابه أحلى أصوات المصلين . ثم أتلفه الكبر والدخان . وينسى المعلم سلامه نفسه ويحنى رأسه على صـدره . ثم ينتبه كل حـين وآخر لصوت رفيـع ، كله تضرع وخشوع هو صوت جميـلة ، ترث أباها فى

ذوقه الموسيقى ، لا يشعر به أحد ، ولكن اذن الاب تصطاده من وسط التيّار .

وفى يوم هبط البلد مبشر بروتستانتى من أسيوط . وقف فى الشارع يعظ ثم اتصل بالاقلية القليلة التى على مذهبه . وتوصل منها الى الاختلاط ببقية الاقباط . فى يده أمنية يلوّح بها ويغرى . فى أسيوط مدرسة للعيال وللبنات مجانية . قراية وكتابة وشغل الابرة والمطبخ . انجليزي من الاصلى المستر كارتر الامريكانى والمدام أليس . مين يقبل ؟ مين عاوز ؟ فيها قسم داخلى . .

الحب الابوى وحده هو الذى زحزح المعلم سلامه عن تعصبه وأسلم جميلة ، لاتبلغ العاشرة ، وقلبه يفيض بالامل أنها فى يوم ما تكون معلمّة فى المدرسة التى تدخلها الآن تلميذة .

خرجت جميلة من سجن كوم النحل الى بحبوحة المدرسة . بعيدة عن أهلها ، وسط زميلات شياطين ، لا تعطيهن المعلمـة ظهرها حتى يعلو ضجيجهن كلغو الحمام ، حشوه ضحكات وأصوات غضب كله دلع ، يداعبنها ويلاعبنها يقتلن الوقت فى الفسح وفى مبادلة خلسة لروايات كل سحرها من وهم قارئها

فى نهاية كل سنة تعود جميلة لتتشبّع من برام الرز بالحمام وتشبرق — ياحبة عينى ! وهى محرومة فى أسيوط

ويوم يمر ويوم يأتى والفتاة النحيلة القصيرة ، يتمشى سر الحياة فى جسمها ، فينبت ثدياها وتعرف الخجل وغض العين ، وصعوبة النوم . .

وأتمت جميلة السنة النهائية ، ودعى المعلم سلامه لحفلة توزيع الشهادات فجاء فى أحسن ثيابه . كيف يستطيع بعد هذه الفرحة أن يرفض لها

طلبها البسيط ؟ يصحبها الى النخيلة لأنها مشتاقة (قوى قوى) لخالتها . أسبوع واحد تمضيه هناك ثم تعود لكوم النحل .

— لكن مش ح سيبك تغيبي هناك . أمك عاوزاك بالحيل . .

٢

وأخذها الى النخيلة . لايعرف أن سبب سفرها ليس هو شوقها لخالتها . بل تنفيذا لاتفاق سابق بينها وبين احدى التلميذات من هذه البلدة . وعد له حرمته لأنه موثق بيمين . فبين جميلة ومريم « اختى وحبيبتى طول العمر » عهد كله حلفان وغيرة وعتاب . عشق حاد لاتعرفه سوى مدارس البنات

عن طريق مريم تعرفت جميلة فى النخيلة بأخيها خليل . بين الاقباط — داخل المنازل — قدر بسيط من السفور والاختلاط . هو أكثر الامر محصور بين الاقرباء . مكنة التعرف فيه قلما تستند على الصدفة أو تقفز الى حدود الغيرمنتظر . قد تتمتع القبطية فى الصعيد بالسفور ولكن عدد من يعرفها فى النهايه قلما يزيد عن الذين يرونها لأول مرة . ولولا تردد مريم على المنزل واكتسابها لقلب الخالة لما تمكنت جميلة أن ترى خليل أو تجتمع به — فيما بعد — فى خلوة إحدي الغرف على غفلة من خالتها .

هو أول شاب تراه جميلة عن قرب ولما يمض على اشتعال جذوة شبابها وقت طويل . وزاده قيمة فى نظرها أنه أخ مريم (أختى وحبيبتى طول العمر) . خدع نفسها إكبارها للصديقة فانساقت من غير ماتشعر الى الاعجاب بالاخ . ولكن كل هذا ظروف خارجية ما كانت تستطيع أن تتسلط وحدها على قلب جميلة لولا أن ساعدها شارب صغير — صغير جدا — فى شعرخفيف ، يزين شفته . فى حديثه لثغة لا ينساها من يسمعها

خده لم يعرف الموسى إلا من وقت قريب ، يحمر ويصفر إذا تلاقى نظراهما .

كان الحديث بينهما فى أول الامر صعبا غير أنه سهل بعد ذلك لما قص عليها أنه درس مثلها (فهو بروتستانتى) فى مدارس الامريكان وأن فرحه باتمام دروسه لايقل عن فرحها فهو موعود بوظيفة مدرس فى احدى مدارس الاقباط بالاسكندرية وسيسافر لها عن قريب . وأراها قلم الابنوس الذى فاز به لحصوله على أعلى نمرة فى (اللغة) الانجليزية . هل تتكلمها مثله ؟ وأسرع يقترح عليها ، كعادة التلاميذ ، أن يتكلما بها . وهكذا . وتنقل الحديث بينهما فاذا بعقلية الفتى على مستوى واحد مع عقلية الفتاة . أغلب ذكرياتهما عن المدرسة . وفكاهتهما مستمدة عن التلاميذ والمدرسين ومختلف شذوذهم . وأزال هذا التشابه مابينهما من كلفة ، وشعر خليل ، بعد هذه الجلسة ، بميل معظمه صبيانى نحو جميلة وزاد على تردده على المنزل تعمده الانفراد بها . مسك يدها . ثم لمس ثديها . وقبلها . ونسيا الاثنان نفسيهما فى إحدى هذه الفورات واجتنى منهما الشباب جزيته .

لما انتهت السكرة لم يستفيقا على منظر مقبض أو بقلب ملتاع . بعد أيام قليلة أستدعى لوظيفته بالاسكندرية . وأخبرتها مريم أن أمنية أمها أن تزوجه بأقرب الفرص . ووعدها خليل أن يعود بعد شهر واحد لكوم النحل ويخطبها من أبيها . ستبيع أمه عشر قراريط تملكها ولايظن أباها يعارض أو يرفض . وكادت تقبض جميلة على سعادتها .

ظهر أول اختلاف بين طبيعتيهما عند اقتراب السفر . كانت تعتقد

أن زحمة ترتيب الشنطة وتوديع الاقرباء لايجوز لها أن تغطى على اهتمام الحبيب بحبيبته ، فى حين أنه شملها ضمن هذه المشاغل ، لايدرك احساسه أن اعتذاره بأحداها يتنقصه فى نظرها ولايبرئه .

على أنه استطاع أن يختلى بها ، وكرر لها ، وكان صادقا ، كل يمين . وجسم لها المستقبل مرة أخرى فى صورة سعيدة محققة . مسألة وقت لاغير . ثم هفا به لسوء حظه طبعه الصبيانى ، وطلبها من جديد . وكانت جميلة واثقة من وعوده ، وربما لم تكن أقل منه ميلا لطلبه ، ولكنها أثناء نشوتها ، أشرق عليها أدراك أشبه بالالهام أحست معه بفراغ بارد يدب فى قلبها فيطفىء من هيجانه وناره . فى إلحاح خليل عليها لتجيبه الى طلبه وهو على أهبة السفر — دليل مؤكد على خفته وقصور نظره على موطىء قدميه . يهمس لها وسواسها لم العجلة مادام أنه سيعود ؟ هل صرحه العالى على رمل ؟ هزة واحدة هدمته حولها حطاما . ودهش الفتى المتعب عندما رآها تتشبث برقبته . تحوطها بذراعيها وتسند رأسها على كتفه ثم تحضنه . تحضنه الى صدرها وتهذى كالمحمومة : —

— خليل ! خليل ! خليل !

لم يتعب خليل فى تهدئتها . فهى التى استفاقت الى عبث مابدالها من جديد أنه وهم متسرع . وعاد اليها ، وإن كان بجهد وسوق ، اطمئنانها على مستقبلها ووثوقها بخليل ، وبدآ يتكلمان عن فترة الغياب . واتفقا على أن يتكاتبا . فاخرج خليل من جيبه ورقة وقلما وكتب لها عنوانه بالاسكندرية ، فهو سينزل طرف أحد أقربائه ، أخذتها جميلة وقرأتها . ثم التفتت اليه تبتسم — وكأنها تعاتبه — مزقت الورقة أمامه :

— يستحيل أنساه . . ماتخافش

ولكن كيف يرد عليها ! أنها ستغادر النخيلة عن قريب . وفى كوم النحل لاتستطيع أن تستلم خطابات باسمها بدون علم أبيها . اذن فلتكتب له ، فهذا لايصعب عليها ، وليصبر هو لايرد عليها حتى تعود لبلدها وتهديه إلى طريقة تمكنه من مراسلتها .

٣

فى مسائه الأخير جاءها ليودعها . قلق السفر يتملكه فهو عجل مشرق الوجه لايستقر على فكرة . لم تصدمه الفتاة بوجه عبوس أوعيون مدمعة بل وجدت نفسها تشاركه ، صادقة وعن طيبة خاطر ، بهجته . هل يستطيع أن يحدّد لها ميعادا لرجوعه لكوم النحل ؟ بعد أول مرة يقبض فيها ماهيته من عرق جبينه . لن يغيب أكثر من شهر واحد . هل سمعت عن فلتس معوض ؟ لا ؟ إنه من أقربائه البعيدين وسينزل لديه مدة اقامته فى كوم النحل .

ولما هم ينصرف أمسك خليل بيديها ووضعهما على كتفيه ، ثم طوق خصرها . عيناها فى عينيه . الحدة التى تغمره صفت طبيعته عن الوضع والالتفات للنفس ولذلك نفذت نظرته إلى قلبها وطوى شعوره شعورها

— أحلف لك بابيه انى مش ح أخونك فى الاسكندرية . إوع تفتكرى

— أنا بقيت فى ايدك . . اعمل فىّ اللى تعمله .

— انتى خايفة ؟

— لا بس مش عارفه ح أصبر ازاي .

— كل ماتفتكرى فىّ اكتبى لى جواب . بس جوابات طويلة مليانة

عاوزك تكتبي لى كل يوم ولو حته وأنا تو ما ح تبعتيلى عنوان ح اكتب لك على كل حاجة .

وجلس وأجلسها على ركبتيه . قبلها على عنقها وعينيها وبين ضفائرها ثم توالت قبلاته حارة هوجاء هنا وهناك .. لايدريان كم من الوقت مر عليهما . ولا كيف تنتهى هذه القبلات .

حركة رجل وصوت باب قطع عليهما الخلوة وقام خليل .. آخر ما رأته منه وجه يديره لها وهو يخرج . وجه طفل سعيد فرح .

بعد يومين كتبت له من النخيلة جوابها الأول .

٤

أقفرت النخيلة فأرسلت لأبيها أن يأتى ويأخذها . . وعادت لكوم النحل معها حقيبة بها برانيط وكتب : اعجوبتان فى منازل الطين والقش .

وتوالت على جميلة زيارات أقاربها وجيرانها ، لاتجد وقتا تفكر فيه كيف تدبر طريقة يراسلها بها خليل . . وكتبت له جوابين تخبره بأمرها وتطلب إليه أن يصبر قليلا .

بعد أيام كانت فى مجلس كله فتيات من سنها ينصتن لفتاة تفضى لهن بمخاوف هى على كل حال لذيذة بدليل ما فى وجوه المستمعات من تطلع وعيونهن من بريق . دخلتها بعد يومين وهى لاتدرى شيئا من أمر أول ليلة مع زوجها . ماذا سيحل بها ، هى خائفة مضطربة . توالت عليها ردود كلها سماعية أو اجتهادية . وكانت حجتهن جميعا واستنادهن الوحيد (ام أحمد هىّ إللى قالت) . هو اسم لاتجهله جميلة وان لم تر صاحبته من قبل . لاتعرف عنها الكثير . . ولكنها لم تقم من المجلس حتى علمت كل أخبارها .

هىّ امرأة تزوّجت أربع مرات . فارقها كل زوج بطلاق بعد عشرة قصيرة . وتسنى لها بفضل هذه المجموعة أن تشتري بما حوّشته من متأخر المهور فدانا ونصف جاموسة . هى ماشطة بلانة فى الأفراح ، حادية بالغناء عند طلوع الحجاج ، والمقدّسين ! — أو رجوعهم ، داية أن استغاث بها جار قريب ، تعرف وصفات ، وتفسرّ الأحلام وتحسب النجوم ، تفوح منها دائما رائحة الماورد ، كل مناسبة اجتماعية تكون فيها أم أحمد بلا عزومة . . إلاّ فى المياتم ، فهى لاتطيقها ، ولعل ذلك لأنها لم تخلف من زواجها المتوالى ، ولم تقرص ، كمعظم المتطوعات باللطم والصوات ، فى ولد عزيز . .

إذا قابلت فتاة كلمتها رأساً ، ولو كانت تعرفها لأول مرة ، عن جسمها وثوبها وشعرها وحمامها ، وان كانت امرأة سألتها عن زوجها وعاداته ونوبات مرضه وهجرانه . . كم فى كوم النحل من رجال يجهلون أن زوجاتهم تلقين عن أم أحمد نصائح أشبه بالدروس ، فمعظم النساء يعرفنها ولكن القليل منهن من تعلم أن أم أحمد قد تمثل فى بعض الأحيان — عندما تكون رايقة — مع التلميذة نصائحها لتكون دروسها عملية أقرب للفهم ، وأن هذه الدروس هى سبب اطمئنان فتيات كثيرات فى لياليهن الاولى مع أزواجهن أو ارتفاع قيمة زوجات فى نظر رجالهن بعد هبوط وإعراض . .

استطاعت جميلة أن تتصل بام أحمد ورغم سمعة هذه المرأة — أو ربما بسببها — شعرت بوثوق شديد نحوها . أفضت لها بقصتها وإن كتمت عنها غلطتها الأساسية وبثتها حيرتها فى شأن الجوابات فكانت أم أحمد هى

التى اقترحت عليها أن يكتب لها خليل على عنوانهـا هى . . ستحفظ الرد من « جوّه حبابى عنيى . . » وتوصله لها .

وعلم خليل بالعنوان . . واستلمت جميلة جوابه الأوّل كاللقيا . . فقليل من الناس من يستطيع أن يكتب خمسة جوابات قبل أن يصله الرد الأوّل .

ليس يصعب عليها أن تكتب الجواب بقلم كوبيا خفية فى منزلها . أحيانا تعطى الجواب لأم أحمد وهى التى توصله للبريد أو أحياناً تكلف به أحد صبيان الحارة على ظن أنه من المنزل وبعلم أبيها . . وهذا لأن مكتب البريد فى السوق أمامه دكاكين واناس جالسون أقوياء العيون وهى تخشى أن يعرفها أحد فيتصل بعلم أبيها خبر ترددها على المكتب وينفضح سرّها

فى أوّل الأمر اقتصر حديث خليل على حياته المدرسية وعلاقته بالتلاميذ ، وتعبه من الدروس، ثم بشرها فى خطاب قال أن ناظر المدرسة مسرور من اجتهاده ومواظبته وأنه أوصى بمنحه علاوة وترقيته .. وأنهم لذلك اختاروه لوظيفة خات بمدارس القاهرة وسيافر لها عن قريب . . أليس هذا من حسن طالعها عليه ؟

لم يمض وقت طويل حتى جاءها خطابه من القاهرة . هو فى وظيفته الجديدة منذ يومين . ما أتعب العزال وخوتة السفر ! ولكنه مبسوط وطلب منها أن تراسله من هنا ورايح على شباك بريد الفجالة لأنه يستطيع أن يمرّ هناك كل يوم ويستلم خطاباتها أول بأول

وانتظمت المراسلة بينهما

٤ - فرحة ماتمت

١

وفى خليل بوعده وجاء بعد شهرين لكوم النحل ونزل لدي قريبه فلتس معوض . يظلم هذا الشاب من يتهمه بأنه مزور او مخادع . كل ما فى الأمر أنه قليل التجربة يقدم بعبط على أدق المواقف جاهلا ما فى طقوس الحياة من صلابة فقد جاء لكوم النحل مفلس اليدين لأن امه لم تبع الطين لايدري بالضبط إلى أى مدي يكون مسعاه ، كل ماأخبر به امه أنه سيخطب جميلة ـ يخطبها فقط ـ من أبيها

وقابل خليل مع قريبه فلتس المعلم سلامه وفاتحه برغبته فى الزواج من جميلة • فارقهمـا الأب وهو فاهم أن المسألة خطوبة فقط لأنه ينتظر أن يكون مع الشاب أمه أو أحد أعمامه • ولكنه عندما أخبر زوجته الخبر سهلت عليه أن يتم الزواج كله مرة واحدة ، يجوز أن تكون أم العريس مريضة أو عجوزا لاتتحرك ويتلف أمل البنت • ثم ماداعى الانتظار ؟ وكانت جميلة بعاطفة نصفها محبة ونصفها استبداد قد ضمت أمها الى صفها بل كانت تحركها طوع ارادتها •

فى الجلسة الثانية لم يشعر خليل أنه ينساق إلى التكلم فى الأكليل وتاريخه • ثم وقفت المفاوضة مرة اخرى عندما فهم المعلم سلامه أن خليل لم يأت بالمهر ، مرة اخرى زالت هـذه المشكلة فى منزله •• وقبل تحت الحاح زوجته أن يعقد الاكليل على أن لاتسافر جميلة للقاهرة

الا بعد دفع المهر ، فهو لن يخسر شيئا الآن ولن يبدأ فى شراء الجهاز ـ من ملابس وصيغة ـ الا عند قبض النقود .

وتحركت الاجراءات من جديد .. وقابل الجميع القسيس فاذا هو ماء بارد يصب بلا رحمة على نار عجلتهم .. العريس بروتستانتى والعروسة ارثوذكسية .. فلا بد أن يكتب لمصر ليستأذن. هل جاء بشهادة من كنيسته بالنخيلة أنه غير متزوج؟ الخ الخ . معارضات تصفى على لاشىء ولكنها تستلزم وقتاً ، وخليل فى أجازة قصيرة قاربت الانتهاء. اذن يعود مرة اخرى

لم يستطيع أن يختلى بجميلة قبل سفره ، لم تأس على مافاتها فأمامها المراسلة بينهما، سيتفاهمان بها من جديد وستبث الورق كل ما كانت تود أن تقوله

ولما انتهت هذه الهيصة بسفر خليل أحس المعلم سلامه أنه يستيقظ من حلم ، أين هو وقت أن كان يساق إلى كل هذه التسهيلات لأجل هذا الفتى الغريب عنه؟ وحمد الله فى سره أن المسألة لم تتم ، يلزمها أولا تكملة مافى شكلها الخارجى من نقص يلحظه الناس ، على الأقل تأتى امه ليرى وجهها أو بالقليل يقدم لها خاتما ثم هو يريد أن يسأل بعض معارفه فى القاهرة عن حقيقة مرتبه ومركزه فى المدرسة ولو درى المعلم سلامه أن فى بطن ابنته جنينا ينمو يوما بعد يوم كعقرب الساعة لاترى العين حركته وهو دائب السير لمصير محتوم، لما حمد الله كما فعل ولأكل الهم قلبه

٢

ليالى لاتنامها من الفرح تتلوها ليالى من الكرب كانت قد ألهبت عواطفها بالسياط وغلقت كل أمالها على مجىء خليل فخلا بها حظها الأغبر، ليس أصعب على النفس من الفرصة تملكها اليد ثم تنساب من خلال

الأصابع كالماء . لم تكن فى اشباع شهوة أو تحقيق حلم بل فى انقاذ شرف ولماذا لاتقول انقاذ روح ؟ فمن يدريها أن حنان هذا الأب قد ينقلب فجأة إلى قسوة لاتلين ، أصابعه التى تجوس خلال شعرها قد تتصلب فى خيانة مباغته وتطبق على حلقها . جميلة ! أنت ! التى كنت أعزها ولا أرد لها طلبا تفضحين شيبتى . تضعين ذقنى فى الوحل واسمى فى أفواه الناس يمضغونه على مهل كأنه العلك اللذيذ ، على مهل من هنا ومن هنا يتبادلونه كأنه الهدايا ويثيرونه عندما يملون الحديث

لمن تشتكى ؟ فتاة لاتعرف من المآزق والمخاطر شيئا ترى نفسها أمام مشكلة ليست فى الحياة مثلها هى عقدة كلها اصطدام ونزاع ، وخيوطها من ديانة وتقاليد ووهم موشجة بحكم الدم والجسم . وسر الحياة لايهمه ماذا يعتقد الناس . لارحمة فيها . جبروتها قلما يستطيع أن يثور عليه رجل يعيش فى وسط الصعيد وبعقلية يرثها عن أجيال لاتتسامح ولاتلين .

اصفرت جميلة وتاهت نظرتها وتعلمت كيف تحتضن الوسادة بذراعيها وتسرح بدل أن تنام ، تتقلب على الجنبين .. هل من مخرج؟ ليس إلا أن يأتى خليل من جديد .

وعادت لخطاباتها ، فهى كل مابقى لها . تنفخ فى روح أملها ، وتستحث خليل على المجىء

٣

فى هذا الوقت بدأ عباس يفتح الجوابات . لم يفهم فى أول الامر أن جميلة قد دخلت فى دور الامومة . فهى بعد أن أخبرت خليل بسرها فى خطاب سابق لم تعد الى ذكره . تشاؤمها وخجلها يثنيانها . تحتمل عارها فكرة ، ولا تطيقه على الورق مخلوقا من صنع يديها مكشوف الوجه ، بشعا

يحملق فيها . واكتفت أنها فى كل خطاب تناديه . وهو فاهم

وظل عباس جاهلا سرها وإن كان فى دخيلته ادراك مبهم بأن هذه الخطابات تحوى شيئا بين النقص والتناقض ، وهذ ما جعله ازاء ما بها من تشبث بعيد عن الارتماء ، وعاطفة لا يضعفها التكرار ولا يطفئها صقيع تيار يخلفه الزمن فى جريه ، يراها وهو مأخوذ بها فى صورة معوّجة تزيد من اعجابه بقدر ما تمد فى ظنونه . ولكنه — كلوحة السينما تدلس الفزع بمنظر أبتر وترد منطقيته عندما تكشف عن أساسه — أدرك ما كان غائبا عنه عندما وجدها فى خطاب غريب تنفجر بمرارة . مسكينة ! تقول له لماذا لم يأت ؟ هل نسى ما أخبرته به ! أم لم يفهم ؟ لعله فى فسحه يضحك ويتسلى بين أصدقائه يطارحهم النكات . فهل فكر فيها ؟ جاوزت شهرها السادس وأصبح منظرها مفضوحا . منذ أيام وهى تتصنع المرض حتى لا يراها أبوها . جاءها القسيس وبارك وصلى ، وجه أمها مسود كسيف ، لعله هو الذي ينم عليها . لا يزال فى الامر مخرج . لو جاء ! لو جاء وعقد عليها وأخذها معه . بعيدا بعيدا عن هذا الاب وهذا المنزل . لتعش طول عمرها خادمة تمسح حذاءه ، ليضربها كل يوم ، ليعطها عيشا حافا كالكلاب .

« لما قريت الجواب حسيت لأول مرة أن المسألة مش هزار ولا لعب عيال ، أتاريها حاجة خطرة ومحزنة وأنا مش دارى . افتكرت جواباتها كلها وفهمت . وقتها بس فهمت . أقول لك الحق قلبى وجعنى علشان البنت دي . طول الليل وأنا افكر فيها . لو كنت فى مصر يمكن ماكنتش اترعب علشانها . لكن هنا فى كوم النحل حاجة مخوفانى .

حتى الهوا اللى الواحد يتنفسه يكتم الصدر ويخنق الواحد . مافيش رحمة كل أملى حطيته فى الرد اللى ح يجى . ماليش صبر استنى . أنا ياللى ماليش دعوة ولا حاجة تمسنى ، أمّال هىّ بتعمل أيه ؟

بعد أربعة أيام جاء الرد . لم يستطع عباس أن يصبر حتى يأخذه معه الى منزله ويقرأه على خلوة . بل فتحه فى المكتب وبقية الخطابات أمامه لم يفرزها بعد . وقرأ :

عزيزتى ونور عينى

علم الله اننى ما تأخرت فى الكتابة اليك إلا لأننى كنت مشغولا ومشغولا جدا . وانا يا عزيزتى لم أرد أخبارك من قبل بسوء التفاهم الذى وقع بينى وبين ناظر المدرسة حتى لا تتكدرين من أجلى . كل الخناقة على درس خصوصى والسبب فى التوقيع شخص كنت أعده صديق كما قال الشاعر :

احذر عدوك مرة
واحذر صديقك الف مرة

وتصوري ياعزيزتى أن الناظرا أراد أن يأذينى وسمعت من الباشفراش أنه شرع فى كتابة تقرير ضدى حتى اصبحت اترحم على أيام الاسكندرية وحتى يئست من حظىء وقلت ارادة الرب . ولكنى محبة الهنا خلت ناس ، من حيث لا أعرف يتوسطوا لى واخيرا قرروا اعادتى للاسكندرية وهذا آخر جواب اكتبه لك من مصر لأنى مسافر اليوم بقطار المفتخر فارجوك يا عزيزتى أن تكتبى لى من الان فصاعدا على عنوانى القديم هناك . عزيزتى — أظن فهمتى الان لماذا تأخرت فى الرد ولماذا يستحيل

على السفر اليك . لولا المشاكل التى شرحتها لك لكنت كلمتهم فى اجازة قصيرة بحق وحقيق ولكنى زى ما شفتى مافيش فى ايدى حيلة ولكن لا تخافى المسألة ملحوقة . استفهمت من ناس قالوا لى على أدوية كثيرة ووصفات فاخبرينى ابعت لك بدوا ينفعك وهذا فقط حتى تأتى اجازة الصيف وأحضر لك

عزيزتى ـ أخبرك أن اختى مريم ستحضر طرفى للفسحة بالاسكندرية وامى فاضلة لوحدها رجليها بتوجعها ومش عاوزه تسافر

عزيزتى ـ عندى كلام كتير مخليه لما أروق فى الاسكندرية اكتبه لك من هناك

الف قبلة من المخلص اليك دائما   خليل

« شفتش بواخة اكتر من كده ؟ هو دا جواب يكتبه المغفل دا . زي اللى أنا حاسس بقلب البنت لما تقراه .. سكاكين تقطع فيه !! »

٥ — سقطة البوسطجى

حطيت الجواب على جنب فوق الطرابيزة عبال ما اخلص من الشغل وأقفله على مهلى . قلت فى نفسى أصلا ما هوّاش مستعجل قد كده . ويمكن يبقى ثواب منى لو أخرته عن البنت المسكينة شوية . ومسكت فى الشغل زى العادة كل يوم

ملأ الختامة حبرا جديدا ، وصلح تاريخ الختم المستدير ثم جاء بالخطابات ورتبها كلها على ظهرها كوما واحدا ثم بدأ يختمها فى حركة ميكانيكية سريعة متكررة . مرة على الختّامة ومرة على الجواب . خبطة مكتومة ووراءها رنة خشبية . هذا الصوت الذى يألفه كل من يعيش بمكاتب البريد أو يمر بها . هو شهيقها وزفيرها وهى تلهث فى عجلتها

لسوء حظ عباس دخل عليه فى هذا الوقت شيخ الخفر . هو رسول العمدة يسأله متى يخرج من البيت . هب فيه عباس وهو محتقن الوجه هائج . ختم البريد فى يده يرتعش . ما هذه الخوتة ؟ كل يوم البيت . البيت البيت . يكفيه وجع دماغ . إنه لا ينادي طرشا ولا يتكلم بالسريانى . هو باق لا يتحرك لوعيد ولا لرجاء . أنه ليس بطفل يهزل . وحتى يعتقد العمدة ويريح نفسه ها هو هذه المرة يقسم بالله ثلاثا أنه لن يخرج من الدار . والله العظيم وبالله الكريم .

سهى عليه أن الختم لا يزال فى قبضته . ولم يهتم فى حدته أين تقع ضربة القسم . وخانته يده فهوت بالختم على جواب خليل المفتوح

وقبل أن يعى عباس لنفسه كان قد انطبع تحت امضاء خليل ختم (كوم النحل — وارد) فى استدارة أم خمسه . تلمع الحروف والارقام ، حبر زفر ملعون

وقف أمام خطئه ذاهلا تركبه الاوهام . لوحاول أن يمسحه لخرق الورق وعماها بدل أن يكحلها . ولو قفله وسلمه لأم أحمد فلا بد أن تكتشف جميلة سره وتتصل بخليل فيشتكيه — من يدري ؟ — وربما قدم الخطاب دليلا ضده فيكون جزاؤه الرفت مؤكدا

« بقيت بين نارين . ان سلمت الجواب انفضحت . وان قطعته ولا ولا حرقته تفضل جميلة تهرى وتنكنت مستنية الرد والذنب ذنبى أنا . لكن قلت فى عقل بالى ياما جوابات بتضيع فى البوسطة . لو ما رحلهاش بالمرة يكون أحسن والمسئولية تبقى متوزعة بينى وبين العموم فى مصر . والجوابات العادية دى ما عليهاش كونترول . وغايته لما يشوف خليل أن جميلة اتأخرت عليه فى الرد يكتب لها تانى من الاسكندرية وح تفهم أنه راح هناك وتكتب له العنوان اللى عارفاه . ايه العنوان دا أنا ما أعرفش . هى لازم كتبت له عليه كام مرة وحافظاه كويّس . »

واحتفظ عباس بالجواب . جاءته أم أحمد فهز لها رأسه . عادت بعد الظهر «مع الاسف ما فيش» فى الصبح مرة أخرى «لسه ما جاش» بعد الظهر «ماكانش ينعز» تانى يوم «النهارده الحد ما فيش بوسطة» يوم الاثنين «يمكن العصر» . فى العصر «يمكن فى الصبح يجى .» . كل هذا والجواب مطبوق بظرفه فى جيبه

« عاوز أكلمها وأفهمها . أقول لها خليل راح اسكندرية . لكن مش

قادر متعرفشى أنا فى الايام دي كنت متعذب قد ايه . ولسه اللّى جى العن والعن »

فى اليوم الخامس جاءه الخطاب الذى كان ينتظره بلهفة . خليل كتب من جديد من الاسكندرية . لم يفتحه . ونوى أن يسلمه الى أم أحمد لحظة أن يراها . فيكفى ما سببه من تأخير . ولكن أم أحمد لم تأت . انتظرها إلى العصر فلم تظهر . بعد التشطيب وضع الجواب فى جيبه وسار إلى مسكنها . لم يقترب من رأس الحارة حتى رأى النسوة حول المنزل كرش الملح . كلهن مبشنقات . دق قلبه . وكذب وسواسه . وسأل فأجيب

— أم أحمد تعيش انت .

وعلا حواليه صراخ النائحات وخيّل اليه وهو مشتت الذهن أن كل هذا الجمع الاسود كسرب من غربان الشوم ، يصوّت عليه وعلى مصيبته الثقيلة وبختة المائل

وقفت مذهول . طب ماتت ماتت . مرة كوكوبة فى داهية . لكن الجواب اللى فى جيبى أعمل فيه إيه ؟ الغلطة بتاعتى بدل ماتتصلح أتهببت زيادة . ح اضطر أرجع الجواب للعموم وأقول عليه (المرسل اليه متوفى) لو كنت مابوظتش الجواب الأولانى كانت جميلة عرفت مطرح خليل وكتبت له على عنوان جديد بعد موت أم أحمد . واتفقت وياه على حاجة . جيت أنا بسلامتى وقطعت الخيط اللى بين الاثنين . والمصيبة أن الغلطة دى ماتحصلش إلا والبنت فى كرب . تقريبا بتستغيث . ح تقول عليه إيه ؟ لازم ح تفهم إنه بيتهرب منها والجدع مظلوم . ويمكن كان يجى لو كتبت له مرة ثانية . مين يعرف ؟ وأرجع أقول ينفلقوا الكل سوا

أنا عاوز أخلص نفسى وبس . حرمت العب فى جوابات العيال دول تو مايكتبوا لبعض من جديد . لكن ازاي ؟ ازاى أتوصل لجميله ؟ مايمكنش فى بلد زى دى تتشمم على بنت أو تسأل . وتسأل مين ؟ دانا غريب وعازب . وبفرض عرفتها أكلمها ازاي ؟

مشيت مش حاسس بنفسى . أبص للبنات اللى فايتين . ياترى ماتكونش دى جميلة ؟ ولا دي ؟ يمكن دى ؟ قايست وحاجة خلتنى هجمت على أول واحدة

— جميلة ؟

هربت منى : والثانية

— ماتعرفيش جميلة ؟

خافت وجريت : والثالثة دورت وشها للحيط . ووطت شوية شوية ح تقعد ع الارض وح تعيط :

أظن دلوقتى ح تضحك لما تفتكر بلاغ العمدة الاولانى ضدى . وازاى انتهز الفرصة دي واشتكانى . أنا كذبت عليك وقتها . ولما سيبتك كنت عيان صحيح . ماقدرتش أقوم من السرير . جات لى حمى بقيت أهلوس يمكن جمعة .

فى الوقت ده جه للمكتب بدل من أسيوط وأستلم الشغل . لازم جميلة كتبت مدة غيابى لخليل على عنوانه بالفجالة تتعجله وتقول له على موت أم احمد والغالب — زي ماقلت لك — أنها فهمته على عنوان جديد يكتب لها عليه . دا كله علشان لما قمت من العيا واستلمت الشغل تانى لقيت جواب منها على عنوان الفجالة . جواب قصير تقول له أنها مستنية

الرد بسرعة . وضرورى يجى قوام وطبعا ماكانش فيه مناسبة تجيب له تانى سيرة عنوانها الجديد لغاية دلوقتى ماعرفتوش ولا أقدرش أضمن يكون هوا إيه . لكن خليل عمل ايه ؟ لازم فضل هوا راخر يبعت فى جوابات على عنوان أم أحمد ولاحدش يأخدها . علشان أتأكد كلمت البدل وعملت حجتى إنه جديد فى البلد ولايعرفش حد وسألته .

— عندكش جوابات لسه ماوزعتهاش ؟

— فيه جوابين ثلاثة . لكن ماتخافشى . أنا روّقت لك الشغل تمام حتى واحدة أظن أسمها أم احمد كان لها جوابين رجعتهم للعموم علشان ناس قالوا لى أنها ماتت .

بعد كده جه جواب تانى من خليل . فتحته . إيه الحكاية ؟ مابتردش عليه ليه ؟ هو زعلان من زعلها . مالهاش حق تزعل مادام فهمها عذره وجواب تانى بعد دا بعشرة أيام تقريبا . لسه زعلانه ؟ إذا كان فيه حاجة مزعلاها لازم تقولها له وهوا بس ح يكتب لها جوابات على فشوش وحاجة زى دى . وبعد كده سكت ، خرس . ولا جواب تانى جه منه بعد كده .

الجوابات دي كلها بقيت أخدها . ماأرجعهاش للعموم . وايه الفايدة وكنت باعمل كده فى جوابات جميلة كل يومين والتانى يترمى فى الصندوق جواب منها . جواباتها رخرة اللى راحت مدة غيابى ع الفجالة طبعا لسه ملقحة فى الشباك هناك . ماحدش بياخدهم .

وتاهت نظرة عباس ، وتصلب وجهه ، وسمرت عيناه على مرمى بعيد ليس فى وجهه أثر للروح الخفيفة المرتعبة الهائجة . تمثال من البرونز

يقصد صانعه ابراز قساوة اللحم وصلابة خطوط الجبين والجفن البارز من أثر المجهود . تتبعه حسنى بنظرته . وهو يعجب كيف تنقلب الطبيعة فجأة . هل يكون هذا علامة على أن عباس مشرف على مرض آخر ؟ أعاده للحياة بسؤاله .

— وجميلة ؟

عاد عباس لحديثه اهدأ صوتا واخفت نغمة .

— جميلة ؟ يمكن بعتت له ٢٠ جواب كل يومين وفى الآخر كل يوم ماعرفتش مين اللى بيجيبهم للبوسطة . كنت دايما ألاقيهم الصبح لازم حد بيرميهم قبل ما أحضر للمكتب . فى الاول سألته ليه مابيردش عليها هى مش عاوزه منه حاجة بس يفهمها إيه سبب سكوته .

ثم أخذ كل خطاب يقصر عما قبله . كالنار تنطفىء وتطأطىء رأسها على مهل . حالتها سيئة . ومصيبتها كبيرة ولكنها واثقة فيه لا يفارقها اعتقادها أن كربها إلى فرج فهى ماذا جنت فى حياتها ؟ لاتذكر أنها صلّت بقلب بارد أو اذنبت فى حق الشاب . يارب ! لماذا ؟ من وسط الاف الفتيات يختارها القدر ليذيقها المر ، من أسابيع وهى لاتخرج من البيت حتى ذوى لونها وأمسكت عن الأكل إلا مايدفعها اليه جوعها

وساعد جميلة على التهرب من نظر أبيها أنه قلما يأتى لمنزله إلا لينام . تجارته تشغل وقته وتضطره الى السفر لأسيوط . فى المرة الاخيرة عاد مع الليل بعد غياب غير قصير ودخل فى حضنه بطيخة

— جميلة ! فاجابته أمها : —

— البنت عيانه شوية . سيبها .

جواب واحد لايتغير منذ زمن . سار المعلم سلامه الى ابنته ، لما رأته — وهى فى فراشها — نهضت واقفة ، الغرفة معتمة والنور ضئيل . اقترب الرجل من ابنته ووضع يده على رأسها ، وسقطت نظرته على جسمها ورفع وجهه فاذا به شاخ فى اللحظة الضئيلة سنينا . هو العضمة الزرقاء حقا . وجهه فى لون رمادى منطفىء . ذقنه معفرة وشفته منيّلة . فى عيونه لمعان أصفر وكأن رأسه صغرت فجأة ، فالعمامة تنزلق ، وهى ثقيلة الدم ، فتقضم نصف أذنيه وأدار وجهه لينادي زوجته فانفلتت جميله وعادت الى فراشها . نظرة أخرى ثم خرج

ونسى المعلم سلامة عشاءه وفضلت البطيخة صحيحة

رجعت جميلة كتبت لخليل جواب طويل . لازم ابوها مش ح يسكت بعد كده . خايفة منه . خلاص مالهاش أمل . ثلاث أربع أيام ماخرجش من البيت . ينفخ ويتنهد . كل ماتحس برجله جايه ناحيتها قلبها يقف . لو يجى خليل ولو يوم واحد كل شىء ينتهى . فين هو ؟ فى عرضه . فى طوله . تبوس رجليه . . يعمل فيها معروف »

مضت ليال لم يغمض لها فيها جفن تنصت لوقع الاقدام وتظن الظنون . على أى شكل ستلقى حتفها ؟ هل سيختار حبلا ام سكينا ، مخدة مبللة ام سما نقيعا ؟ ونست جميلة خليلا وصمته وكذبه وخيانته واقتصر اهتمامها على حياتها . لو تستطيع أن تهرب من الدار لنجت . ولكن أين السبيل وهى محبوسة . .

« كتبت له الدور دا يايلحقها يامايلحقهاش . . لو ماتت مقتولة . . . يكون موتها علشانه . يبقى ماينساهاش . . ويفتكر فى تربتها . .

اخر جواب كان بتاع النهارده ، وانا رايح المحطة الصبح فتحته وقريته
كلمتين اتنين بس .

خليل . . الحقنى !

عمرى ماشفت واحد بيطالع فى الروح . ولا شفت ميت . الكلمتين دول خلّوا جسمى يقشعر . . تعرف الخروف لما يشخر ويرفص وقت مايندبح . . والفرخة لما تجرى ورقبتها مقصوفة . . كل ده مش حاجة جنب الكلمتين دول . . الجواب ده مسكته وقطعته . . الباقى اللى فى الشنطه زى الرصد قدامى . . همّاح يكونوا اهم من جواباتها اللى ضاعت طظ ! ينفلقوا أصحابهم ويروحوا فى داهية اذا كانوا عاوزين . . جوابات سمجة سخيفة دمها بارد . . رحت نازل عليهم وهات يا تقطيع . . تقولش ساعتها انى باقطّع فى هدوم واحد بخانقه . . بغّل . . وبعدين ماحستش بنفسى . . دخت ورحت فى دنيا غير الدنيا . . اللى غايظنى ساعتها ان الدنيا دى حاجة سخيفة . . اتهيء لى انها طارشة . . تفضل مهما صرخت فيها ماشيه زي العادة . مافيش حاجة تقدر توقفها . . ليه زى الطارشة ؟ علشان عمرها ماتبص وراها .. البنت المسكينة دى داستها وفاتت عليها . انا لغاية دلوقتى مااعرفش جرى لها ايه .. أكتر من كده عمرى ماشفتها ، لكنى انا متأكد ان البنت دى ماتت غدر . . والسبب أنا . . مافيش حد قتل البنت دي غيري أنا . . أنا . . »

وسكت عباس فخلا حسنى لنفسه . هو كالمتفرج فى السرك تهزه مخاطرة اللاعب وان لم يفته اليقين أنها — ككل ليلة — تنتهى بسلام . فهو من ناحية — ربما بسبب عاطفته — لم يتخلف عن عباس فى

قصته ، يسايره فكرة فكرة ، فاهم دواعيه مقدر أحزانه وهمومه ، ويشاركه الندم ويرثى له كيف هوي حظه وخانته يده ، ويعتقد معه انه اغتال هذه الفتاة بغلطته ، من ناحية أخرى يعلم أنه يستطيع بمجهود صغير أن يغير من نظرة عباس لماضيه ويعيد الى هذا المريض ثقته بنفسه . . . ولكنه — وهو الخبير المجرّب — لن يقصد إلى غرضه بمحاولته التقليل من حدته وهياجه ، أو بأن يفتح له عينيه ليريه مبالغته الظاهرة وتهويله فهو يعلم أنه لو فعل ذلك لما زاد شعور عباس الا التواء ، وانكمش فى نفسه يأكلها يأسا وندما . . فخير مايفعله معالج الأعصاب أن يؤمن بقول المريض ، لا كحيلة ، بل باعتقاد .

التفت اليه حسنى وهو يبتسم . . : —

— ومين اللى فى الدنيا دي كلها واحد مسئول ؟

وسكت فجأة كأن يدا وضعت على فمه ، جملة يتصيّدها ليستخدمها وهو بعيد عنها ، فلما خلقها لسانه ركبته فهوى تحت ثقلها . . كصدمة ممثل ببغاء عندما يستفيق أن دوره يلبسه . .

عادت الحياة لوجه عباس واقترب إلى حافة فراشه !

— طب قول لى اعمل إيه ؟ أحكى لهم فى التحقيق ع الحكاية ؟ ولاّ أسكت ؟

— احسن شىء تكفى ع الخبر ماجور . .

ترك عباس فراشه وسحب من تحت سريره حقيبة استدارت أركانها ومدّ يده يزيح أكواما من ثياب ملعبكة ، ثم اخرج من تحتها رزمة رماها على الطرابيزة . — أدي الجوابات كلّها . . أحسن شىء تاخذهم

انت .. أنا مش قادر اقطعهم .. ويمكن يلاقوها عندى ..

جمعها حسنى بين يديه .. رزمة نحيفة من ورق رخيص ...

وساد فى الغرفة صمت ، جفون حسنى لاتستقر ، وانتبه الاثنان على صوت جرس الكنيسة الصغيرة يدق اشعارا بموت .. يكاد ينطق ، فقد يعبّر النحاس فى بعض الأحيان عن منتهى حزن الانسان وألمه ..

﴿ تمت ﴾